عبد الجبار اليحيا في كلمة بقلمه

■ منذ البدايات الأولى والجدران البيضاء المجصصة وعود الأثل المحترق، أدوات بدائية كست تلك الجدران خطوطاً سوداء تتراقص بأحلام الطفولة.

عيون تلتقط بسرعة فائقة وأصابع صغيرة مرنة وفكر مأخوذ بروعة الصور والرسوم الملونة في كتب فنية لابن خالتي - ناصر سعد الخرجي - قد التهمت جل وقتي في نقلها مرات ومرات عديدة، بل مئات المرات.

تماثيل الأغريق القديمة، ولوحات «روفائيل» و«مايكل انجلو» وتخطيطات «دورر» وفنانين «روس» من عصر النهضة الأوروبية .. ثم «فان كوخ» ومعاصريه.

ألوان كنت أشتريها وألوان أستحدثها بنفسي من «الخرس» و«الحناء» و«البرسيم» ومساحيق صبغ الملابس. مذابة بـ «زلال البيض» أو «دهن الكتان» أو «زيت الخروع» في الزبير حيث لا توجد الألوان جاهزة آنذاك إبان الحرب العالمية الثانية.

قرأت كل ما يقع تحت يدي من كتب فنية وأدبية، وما يتعلق بالنقد الفني والأدبي، فأدركت فكرة أن «الفن للحياة» وأن الفن لرقي الإنسان وصراعه نحو الأفضل، لم يدر بخلدي مطلقاً بأن الفن تسلية أو هواية مجردة من الغرض والنفع العام، كنت أعتقد جازماً بأن لي رسالة يجب أن أحققها، سواء بإدخال المتعة والسرور بتذوق الجمال أو بتحقيق فكرة تفتح كوة أمل للإنسان، ورسمت. رسمت كثيراً.

كآبة في النفس وغصة في القلب أن أبتعد ولو قليلاً عن الرسم بقدومي إلى الوطن - المملكة العربية السعودية - وعدم وجود إمكانية دراسة الرسم أكاديمياً. بل الدراسة والعمل «فني إلكترونيات» في سلاح الطيران، القوات الجوية حالياً.

بغض النظر عن الصعوبات آنذاك، كنت أشتاق بوله شديد إلى الرسم، فأرسم تارة وأحبط تارة أخرى، حتى ذهابي إلى أمريكا عام 1952، عاودني الحنين للرسم، فرسمت وشاركت في معرض جماعي.

مد وجزر، وضياع فني. لا شيء ذا قيمة يذكر، حتى أواسط الستينيات وبداية نشاط فني في المملكة وذلك بإقامة «معارض» فنية لمدرسين عراقيين.

قلت لنفسي: رويدك، أمامك متسع من الوقت، كل الوقت، سوف تتقاعد وتتفرغ للرسم سيكون عطرك المفضل مستحضرات «رمبرانت» والألوان الزيتية الممتازة.

وهكذا .. مطلق الحرية، الحرية بمعناها الضيق والواسع، وأنانية الفنان المتعطش لرسم ما في داخله وإطفاء رغبة جامحة بالألوان، بالطبيعة، بالناس كما أراهم عراة من كل زيف.

الانطباعية والتأثيرية تتداخلان بألوانهما الزاخرة ضمن خطوط سريالية حالمة.. مرة أخرى هل الفن للحياة؟ أم الفن للفن؟ أم الفن هو ما تجيش به نفسك؟ ديدنها الصدق واكتشاف الحياة؟ والحياة ما هي إلا جسر ونعبره. إذن ليكن جسرا يمتد إلى الضفة الأخرى، خضراء يانعة.

وكانت «المجر» محطة قصيرة ملأى باللون والطبيعة البكر، وحلماً زاهي الألوان تستيقظ فيه. ولم تزل رائحة الربيع متناثرة في الجو..

في هذه اللحظة، عبق رائحة الألوان الزيتية تنتشر في جميع أركان البيت والخطوط والألوان تتراقص على الجدران مع أحلام يقظة لرجل عجوز.

هذه مسيرة نصف قرن، متناثرة هنا وهناك، ضمها كتاب (عبد الجبار اليحيا.. وخمسون عاماً من الرسم)، أسواقها ملخصة بين يديك لتمد جسور التواصل الذي سعيت دائماً في بنائه، دون بناء هذا الجسر وهذا التواصل ودون قناعتك بعبوره والتقائنا في نقطة ما. لن يكون هناك معنى وعبثاً تكون هذه المسيرة.

من مخاض التجربة هناك العمل والأمل وبلوغ الهدف بإذن الله.

وشكراً للمواكبة.

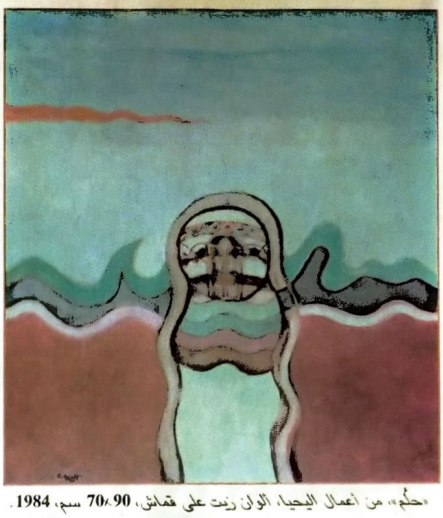

«حلم»، من أعمال اليحيا، ألوان زيت على قماش، 90×70 سم، 1984.

«ثورة الحجارة»، من أعمال اليحيا، ألوان زيت على قماش، 70×70 سم، 1988.

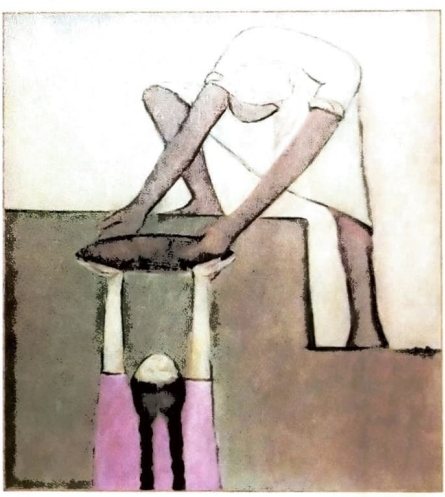

«بناء»، من أعمال اليحيا، ألوان زيت على قماش 122×91 سم، 1983.

«العائلة»، من أعمال اليحيا، ألوان زيت على قماش، 122×90 سم، 1983.